المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السادس والعشرين

١ فبراير (شباط) سنة ١٩٠١ — الموافق ١١ شوال سنة ١٣١٨

وفاة الملكة فكتوريا

لم تشهد الكرة الارضية حزناً عمَّ قارتها وجزائرها كما شهدت في اواخر الشهر الماضي لما نفذ القضاء الذي قضى بهِ الله على كل حي في الملكة فكتوريا بعد ان حكمت اربع مئة مليون من الناس اكثر من ستين عاماً فارتقوا في عهدها ارتقاء لا مثيل لهُ في تاريخ الانسان

ولدت هذه الملكة العظيمة في الرابع والعشرين من شهر مايو (ايار) سنة ١٨١٩ ورقيت الى سدة الملك في العشرين من شهر يونيو (حزيران) سنة ١٨٣٧ فتوفيت في الثانية والثمانين من عمرها والرابعة والستين من ملكها . عمر طويل قضتهُ في ما ارضى الخالق واسعد المخلوق . وانحرفت صحتها في السنة الماضية فاصابها شيء من الدسينتريا والارق وكانت تفقد قوَّة النطق احياناً وهي دلائل الاشتغال الكثير بمهام الملك والحزن الشديد على ما فُجعت بهِ من الترمُّل والثكل وما خُتم بهِ ملكها من هذه الحرب الترنسفالية المشومة وهي الملكة التي تشتري السلام بكل رخيص وغالٍ

وزادت إعراض الضعف عليها في السادس عشر من يناير الماضي لكن ارادتها كانت تقوى عليها فتتجلَّد وتحادث عوَّادها . ثم اشتدَّت الاعراض في التاسع عشر من الشهر الى ان توفيت الى رحمة ربها بلا الم ولا وجع بعد ظهر الثاني والعشرين بست ساعات ونصف ساعة . وللحال طيَّر البرق نعيها الى ممالكها الوسيعة في كل اقطار المسكونة والى سائر الممالك وكان الناس كلهم قد علموا انها مريضة وان نهايتها صارت قريبة لكبر سنها وحالة ضعفها لكن ذلك لم يخفف ما اعتراهم من الحزن والوجوم لهول المصاب . وما حلَّ بالممالك الانكليزية حلَّ بغيرها من ممالك الارض فأبطلت محافل الفرح ورُفعت شارات الحداد في كل الاقطار ووردت رسائل

التعزية على خليفتها الملك ادورد السابع وعلى حكومتهِ من كل الملوك واصحاب المقامات العالية في كل ممالك الارض . واسرع الملوك والعظماء لتشييع جنازتها والاحتفال بدفنها وفي جملتهم امبراطور المانيا وملك بلجكا وملك البرتغال وملك اليونان والغراندوق ميخائيل الروسي شقيق القيصر وولي عهد اسوج وولي عهد ايطاليا والبرنس محمد علي شقيق الجناب الخديوي وغيرهم من نواب الممالك وعظماء الامم

وابَّنتها الصحف الانكليزية وغير الانكليزية على اختلاف لغاتها ونزعاتها وافاضت في ذكر مناقبها ووصف مزايا ملكها وصدرت كلها موشحة بالسواد حتى الصحف والمجلاَّت العلمية والادبية وهي انما فعلت ما يجب عليها نحو ملكة ارتقى العلم في عصرها ارتقاء لا مثيل لهُ في كل العصور السالفة وتعزَّز شان الآداب والفضائل لانها وجدت فيها اعظم نصير لها

وقد كتبنا تاريخ حياتها منذ ثلاث سنوات وانشأنا فصلاً مسهباً وصفنا فيهِ ارتقاء بلادها في عهدها ورأينا الآن ان نعيد بعضهُ هنا لاقتضاء الموضوع ذلك وهو

ارتقاء بلاد كبيرة كالبلاد الانكليزية عمل عظيم جدًّا يستدعي إعمال الوف من العقول الكبيرة والآراء السديدة مدة سنين كثيرة لكن هذه الآراء وتلك العقول قد تعجز عن ترقية البلاد اذا كان ملكها ظالماً غشوماً او خاملاً لا يسعى سعيهُ في مصلحة بلادهِ ولا يهتم باصلاح شانها. فللملك الحكيم الذي يشارك رجالهُ في سياسة بلادهِ ويختار الاكفاء منهم لتولي خططها ويقودهم بحكمتهِ في مسالك الامن الشأن الاعظم في إنجاح البلاد وتعزيز اركانها

وغني عن البيان ان للملكة فكتوريا اليد الطولى فيما بلغتهُ البلاد الانكليزية من الارتقاء في عهدها لانها اتصفت بكل صفات الملك الحكيم العادل المشارك لرجالهِ في كل ما يعود على بلادهِ بالخير والفلاح وارتقاء بلادها لا يتضح مقدارهُ الاَّ بالمقابلة بين حاضرها وماضيها وهذه المقابلة لا توفي حقها في اقل من مجلد كبير لكن الارتقاء عظيم وشامل لكل الاعمال والمعاملات مادية كانت او ادبية حتى تكفي الاشارة اليهِ بالايجاز اذا تعذَّر الاسهاب فنقول

جلست الملكة فكتوريا على سرير الملك والحواجز كبيرة والاسوار منيعة بين السوقة والاعيان هؤلاء يتربعون في المناصب العالية ويتمتعون باطايب الحياة واولئك يُقصَون عنها ويمنعون من الدنو منها . نعم كانت قوانين البلاد تقضي بالمساواة وعدم المحاباة لكن كان فيها عوامل اخرى تخص النعم والمنافع بقوم دون غيرهم فكانت خدمة الحكومة مباحة للجميع ولكن لم يكن يعيَّن فيها ولا ينتفع منها الاَّ اناس مخصوصون لقيود وروابط كثيرة يقضي بها ذوو المآرب مآربهم. وكذلك قل عن حق الانتخاب والدخول في مجلس النواب وفي المدارس العالية. فقام

انصار الحق في عهد الملكة فكتوريا وقطعوا تلك القيود ويسّروا على الوضيع مجاراة الرفيع ولا يزال هذا دأبهم

وسعى العلماء والاطباء في اكتشاف اسباب الامراض والوقاية منها وساعدتهم المجالس البلدية على اتخاذ التدابير الصحية فقلّ معدّل الوفيات وخفّت وطأة الاوبئة فزاد عدد السكان زيادة عظيمة حتى ملأوا الجزائر الانكليزية وهاجر اكثر من تسعة ملايين منهم لتعمير مستعمراتها الوسيعة والانضمام الى اخوانهم في الولايات المتحدة الاميركية . وحيثما ذهبوا اخذوا معهم لغتهم وعلومهم ومبادئ الحرية والانصاف التي نشأوا عليها وهذا سرّ نجاحهم في مستعمراتهم فانهم لا يكتفون برفع رايتهم على البلدان التي يفتحونها بل يرتحلون اليها ويسكنون فيها ويشاركون اهلها في تعميرها

وقد زادت مستعمراتهم في هذه الاثناء زيادة لا مثيل لها في تاريخ الممالك فزادت مساحتها في بلاد الهند ٢٧٥ الف ميل مربع اي اكثر من مساحة بلاد النمسا . وفي سائر اسيا ٨٠ الف ميل مربع اي قدر مساحة بريطانيا نفسها . وفي جنوبي افريقية ٢٠٠ الف ميل مربع وفي شرقيها مليون ميل مربع . وكانت مساحة البلاد الانكليزية ومستعمراتها حينما جلست الملكة على سرير الملك ٨٣٢٩٠٠٠ ميل مربع فبلغت الآن ١١٢٥٠٠٠٠ اي زادت ٢٩٢١٠٠٠ ميل مربع في ستين سنة وكان عدد سكانها ١٦٨ مليوناً فبلغ الآن ٤٠٠ مليون وكان عدد الانكليز في جزائرهم ٢٥٧٥٠٠٠٠ وفي مستعمراتهم نحو ١٥٠٠٠٠٠ فبلغ عددهم الآن في جزائرهم ٣٩٥٠٠٠٠٠ وفي مستعمراتهم ١٠٥٠٠٠٠٠ اي زاد عددهم من ٢٧ مليوناً الى خمسين مليوناً عدا الذين هاجروا منهم الى الولايات المتحدة الاميركية . وكان دخل الحكومة الانكليزية منذ ستين سنة نحو ٧٥ مليون جنيه ٥٠ منها من بريطانيا و ٢٥ من الهند وهو الآن ١١٠ ملايين جنيه من بريطانيا و ٦٣ مليون جنيه من الهند و ٣٠ مليون جنيه من استراليا و ٨ ملايين جنيه من كندا و ٧ ملايين جنيه من بلاد البوير و ٧ ملايين من سائر المستعمرات الانكليزية وجملة ذلك ٢٢٥ مليون جنيه

واتسع نطاق التعليم والتهذيب في الممالك الانكليزية بنوع عام وفي البلاد الانكليزية الاصلية بنوع خاص فبلغ عدد تلامذتها اليوم ستة ملايين ونصف مليون وكانوا قبلاً ٢٥٠ الفاً فقط وبلغت الاموال التي تنفقها الحكومة على التعليم عشرة ملايين جنيه وكانت لا تزيد على مليون جنيه

وزادت ثروة الامّة الانكليزية في بلادها من الفي مليون جنيه الى عشرة آلاف مليون

وزادت اسباب الرفاهة والنعيم على اكثر من هذه النسبة وزاد المال الذي يقتصدهُ فقراء الامَّة في بنوك الاقتصاد من ٢/١ ١٨ مليون جنيه الى ١٥٠ مليونًا

وكثر عدد المحسنين فبنوا ملاجئ للارامل والايتام والمنقطعين وبيوتًا صحية للفقراء على اختلاف طبقاتهم. ومن هؤلاء المحسنين بيبدي الغني الاميركي الذي وهب فقراء لندن خمس مئة الف جنيه . ولما كانت الملكة شاعرة بكل ما يجري في مملكتها كما يجب ان يكون الرأس في الجسم الحي عرفت قدْر هذه الهبة وكتبت اليهِ تقول

بلغ الملكة ان المستر بيبدي عزم على العودة الى اميركا وهي لا تريد ان يترك بلادها من غير ان تثبت لهُ شدَّة اعتبارها للعمل الشريف والهبة الفائقة هبات الملوك التي اراد بها تخفيف المصايب عن الفقراء من رعاياها المقيمين في مدينة لندن . وفي اعتقاد الملكة ان هذا العمل الشريف لا مثيل لهُ بين اعمال الناس وافضل جزاء لهُ ما يشعر بهِ عاملهُ من السرور حينما يعلم مقدار النفع العظيم الذي نفع بهِ اولئك المساكين . ولم تكن الملكة لترضى باظهار شكرها من غير ان تعطي المستر بيبدي علامة من علامات دولتها تدلُّ على اعترافها بفضلهِ العظيم وكانت تسرُّ لو منحتهُ رتبةً عاليةً او نشانًا ساميًا ولكن بلغها انهُ ممنوع من قبول ذلك بقوانين بلادهِ فلم يبقَ لها والحالة هذه سوى ان تقدم لهُ هذه السطور المعربة عما تشعر بهِ من الشكر وتطلب منهُ ان يقبل منها صورة من صورها تصوَّر لهُ خاصَّة ومتى تمَّ تصويرها ترسل اليهِ الى اميركا او تعطى لهُ حينما يعود الى هذه البلاد اذ بلغها ما سرَّها وهو انهُ عازم على العودة الى هذه البلاد المديونة لهُ دينًا عظيمًا

وصُنعت الصورة حسب اشارة الملكة وهي اول مرة صنعت فيها صورتها لتهدى الى غير الملوك والصورة من الميناعلى لوح من الذهب يحيط بها اطار كبير من الذهب الابريز وعليهِ التاج الملكي والملكة فيها لابسة الحلة الملكية التي فتحت بها البارلمنت وهي الحلة الملكية الوحيدة التي لبستها بعد ترمُّلها

ومنذ ثلاث سنوات احتفل اهل مدينة بيبدي باميركا بعيد مئة سنة من يوم ميلادهِ فبعثت اليهم رسالة برقية تقول فيها " ان تذكار جورج بيبدي لم يزل يتجدَّد في قلبي وقلب شعبي بالشكر الجزيل لما لهُ من المبرات المقرونة بالكرم والفضل" . فملكة مثل هذه تنهض همم المحسنين وتحيي آثارهم توجدهم من العدم وتجعل المال في ايدي الاغنياء آلة للبر والاحسان بدلاً من ان يكون آلة للشر والفساد

وابلغ من تقدُّم بلادها العقلي والمادي تقدُّمها الادبي والاجتماعي فاخصُّ ما يمتاز بهِ حكمها تعميم الحرية والمساواة حتى يشترك في خيرات ممالكها كل احد من رعاياها كبيرًا كان او صغيرًا غنيًا

او فقيرًا . وكل بلاد ارتفع فيها العلم البريطاني صارت مقصدًا للناس على اختلاف اجناسهم يقصدونها للارتزاق والاتجار فتساوي بينهم كانهم من رعاياها . وقد نجت كندا واستراليا وزيلندا الجديدة وبلاد الراس حكومة نيابية تكاد تكون مستقلة في كل شيء بل صار النساء ينتخبن ايضًا للنيابة في بعضها ولا يبعد ان تشمل الحكومة النيابية اقسام بلاد الهند فتصير السلطنة الانكليزية كلها مجموع ولايات مستقلة تربطها رابطة الحرية الشخصية والمصلحة العمومية

هذا ما كتبناه منذ ثلاث سنوات ولو كتبناه الآن ما حذفنا حرفًا واحدًا منه بل زدناه تأكيدًا وتثبيتًا فان عدد السكان زاد في هذه السنوات على نسبة ما زاد في السنين الماضية فبلغ في الجزائر البريطانية اكثر من اربعين مليونًا ونصفًا مليون لو بلغ دخل الحكومة مئة وعشرين مليونًا من الجنيهات من بريطانيا واكثر من ٦٧ مليونًا من الهند وعشرة ملايين ونصف مليون من كندا وثمانية ملايين ونصف مليون من بلاد الراس . وضمت بلاد الترنسفال وبلاد اورنج الحرة الى الاملاك الانكليزية ولو بثمن غال جدًّا من الدماء والاموال . وانضمت اقسام استراليا بعضها الى بعض فصارت جمهورية كبيرة مرتبطة بالبلاد الاصلية . واثبتت المستعمرات الانكليزية كلها انها مرتبطة بعضها ببعض وبالبلاد الاصلية باشتراكها كلها في الحرب الترنسفالية

وقد استاء كثيرون من هذه الحرب وودوا لو لم تكن وشمت اعداء انكلترا بما كانت تلقاه من الفشل احيانًا ولكنهم لم ينكروا ما ابدته من الهمة والاقدام والمقدرة التي تفوق كل ما جاء في تاريخ الاوائل والاواخر بتجييشها نحو ثلثمئة الف نفس وارسالهم الى ابعد مكان في قارة افريقية مع كل ما يلزم لهم من الزاد والميرة . ولم تكتفِ بالحاجيات بل ارسلت اليهم الكماليات ايضًا وبعض الاطايب التي لا يتمتع بها الناس الا في بيوتهم ولم تستخدم لذلك سفينة اجنبية . ثم لما قضى الله بوفاة الملكة بادرت امم الارض كلها الى مجاملة الامة الانكليزية كما بادرت يوم الاحتفال بعيد الماس حينما بلغ حكم ملكتها ستين عامًا وقبلما نشبت نيران هذه الحرب . وما ذلك الا لان مقام الملكة ومقام مملكتها عزيزان في النفوس . والجرائد الفرنسوية التي كانت تعتاب الانكليز كلما حانت لها فرصة لم يسعها الا الاعجاب بمقدرتهم يوم استعرضوا اساطيلهم البحرية وقت الاحتفال بيوبيل الملكة والافاضة في وصف مناقبها لما توفاها الله الى رحمته

وعاشت الملكة حتى رأت اولاد احفادها واتضح لها ان الملك يبقى في اعقابها ستين كثيرة وقد وصلت الينا صورتها مع ولي عهدها وولي عهده وابن ولي ولي العهد كما ترى في الصفحة التالية

هذا وقد كان من حظ المقتطف ان نشأ في عصر هذه الملكة فاستقى من بحار العلماء الذين نشأوا في عصرها وفي بلادها واقتطف من ثمار المعارف اليانعة في الصحف العلمية الانكليزية

واميركية فشارك مجلات بلادها في ارتقائها فهو يشاركها الآن ايضاً في رفع واجب العزاء الى

شعبها و يسطّر بمداد الفخر فضائلها وفواضلها لتبقى قدوةً للملوك والبنات والزوجات والامهات ما كرّت الايام والاعوام